الفصل الثاني

رواية الشواهد العلمية

مـا فتئت الحاجة إلى الشعر كبيرة ماسة من لدن نزول القرآن الكريم، حيث طلبت روايته للقيام بها على تفسير غريب القرآن مما ندّ عن استعمال قريشٍ خاصة، وكان واضحاً عند غيرهم لجريانه في تداولهم وألسنتهم، وقد جرى السؤال عن بعض هذه المفردات قصـداً إلى إصابة المعنى الدقيق، وإقامة الحكم المترتب عليه، إذ قد يقارب اللفظ اللفظ أو يوافقه في شكله، أو يداني المعنى المعنى وليس من باب لفظه، فالمشترك والمترادف من الألفاظ نتاج تعدد القبائل واللهجات التي جرت بين أحياء العرب قبل تقاربها وتوحد لغتها.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا لم يحضره شيء من ذلك سأل الناس، فقد سأل يوماً وهو على المنبر عن معنى التخوف في قوله تعالى: ﴿أو يأخذهم على تخوف﴾ فقام شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا: التخوف: التنقص، فقال: هل تعرف العرب ذلك، قال: نعم، قال شاعرنا أبو كبير يصف ناقته:

تخـوف الـرجـل منهـا تامكـا قردا كمـا تخـوف عود الـنـبعـة السفن[1]

ولذلك جاء توجيهه رضي الله عنه للمسلمين بقوله: «عليكم بديوانكم لا تضلوا، قالوا وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم، ومعاني كلامكم».

ويدرك عبد الله بن عباس رضي الله عنه قيمة شعر قبائل الحجاز في تشكيـل لغة

(١) البيضاوي: تفسير البيضاوي ١٨٢/٣ طـ مؤسسة شعبان بيروت.

قريش وتكوينها، فيلفت الانتباه إلى أهميته في القيام بأمر الغريب فيقول: «الشعر ديوان العرب، وهو أول علم، فعليكم بشعر الجاهلية، شعر أهل الحجاز»[1].

واصطنع ابن عباس في تفسير القرآن منهجاً استعان على تحقيقه بوسائل متعددة كان الشعر ركناً ظاهراً فيها، وقبل أن أدلل على مقولاته المأثورة في هذا المجال، يهمني الإشارة إلى أن اتخاذ الشعر أسلوباً في منهج التفسير يبلور اتجاهاً في الحفاظ على الشعر والتمسك به وسيلة من وسائل المعرفة، ومصدراً من مصادرها.

وعدّ ابن عباس رأس مدرسة في تفسير القرآن وغريبه خاصة، بما اصطنع من منهج أضحى مصدراً لمن جاء بعده، يقول السيوطي: «وأولى ما يرجع إليه في ذلك، ما ثبت عن ابن عباس وأصحابه الآخذين عنه، فإنه ورد عنهم ما يستوعب تفسير غريب القرآن بالأسانيد الثابتة الصحيحة»[2]، وأورد السيوطي ثبتاً بالألفاظ الغريبة المنسوبة إلى ابن عباس من طريق علي بن أبي طلحة الهاشمي، وهي الطريق التي اعتمد عليها البخاري في صحيحه[3].

وترك ابن عباس تلامذة أوفياء لمنهجه في التفسير في القرن الأول والثاني الهجريين، منهم عكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة بن دعامة السدوسي ومقاتل بن سليمان، ونسب إلى بعضهم مرويات عن ابن عباس في تأكيد اتخاذه الشعر أسلوباً في التفسير، فقد ذكر الحاكم في المستدرك بسنده عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن قوله عزّ وجل: ﴿يوم يكشف عن ساق﴾ قال: إذا خفي عليكم شيء من القرآن فابتغوه في الشعر، فإنه ديوان العرب، ما سمعتم قول الشاعر:

اصبر عناق إنه شر باق قد سنَّ قومك ضرب الأعناق
قامت الحرب بنا عن ساق

(١) أبو زيد القرشي: جمهرة أشعار العرب ١/٢.
(٢) السيوطي: الإتقان في علوم القرآن ١/١١٤.
(٣) انظر الإتقان: ١/ ١١٤-١١٩.

قال ابن عباس: هذا يوم كرب وشدة[1].

وأخرج أبو بكر الأنباري من طريق عكرمة أيضاً عن ابن عباس قال: «إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب»[2].

وروى الطبري بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال في تفسيره قول الله تعالى: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ «إذا تعاجم شيء من القرآن فانظروا في الشعر، فإن الشعر عربي، ثم دعا ابن عباس أعرابياً فقال: ما الحرج؟ قال: الضيق، قال: صدقت»[3].

وروى السيوطي في الإتقان عن أبي عبيد في فضائله قال: حدثنا هشيم عن حصين بن عبد الرحمن عن عبد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس أنه كان يسأل عن القرآن فينشد فيه الشعر، قال أبو عبيد: يعني كان يستشهد به على التفسير[4].

ويبدو أن عكرمة كان يتمثل طريقة شيخه ابن عباس في التفسير فيصطنع منهجه في ذلك، فقد أخرج الطبري بسنده عن عكرمة في تفسير قول الله تعالى ﴿ألاّ تعولوا﴾ قال: «ألاّ تميلوا» ثم قال: أما سمعت إلى قول أبي طالب:

بميزان قسط وزنه غير عائل.

وأخرج من طريق آخر عن عكرمة أيضاً قال: «ألاّ تعولوا» «ألاّ تميلوا» قال: وأنشد بيتاً من شعر زعم أن أبا طالب قاله:

بميزان قسط لا يُخِسُّ شعيرةً ووازن صدق وزنه غير عائل[5]

---

(١) الحاكم النيسابوري (محمد بن عبد الله): المستدرك عن الصحيحين ٢/٤٩٩ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد.

(٢) السيوطي: الإتقان ١/١٢١.

(٣) الطبري: جامع البيان ١٧/٢٠٦.

(٤) السيوطي: الإتقان ١/١٢١.

(٥) الطبري: جامع البيان ٧/٥٤٩ وتجدر الإشارة إلى أن هذه الآية من مسائل ابن الأزرق إلا أنها =

وهـذه المـرويات تمنح الباحث عن منهج ابن عباس في تفسير غريب القرآن تصوراً مبدئياً شبه متكامل للنظرية والتطبيق معاً، في الدعوة إلى الرجوع إلى الشعر، معجم العرب اللغوي والفكري، وشفع ذلك بنماذج تطبيقية في التفسير.

وأنكر جماعة من النحويين هذا النهج؛ لأنه يجعل الشعر أصلاً للقرآن، والشعر كذلك مذموم في القرآن والحديث، ووصف أبو بكر بن الأنباري هذه الجماعة بأنها لا علم لها، وقال: «وليس الأمر كما زعموه من أنا جعلنا الشعر أصلاً للقرآن، بل أردنا أن نتبين الحرف الغريب من القرآن بالشعر، لأن الله تعالى قال: ﴿إنا جعلناه قرآناً عربياً﴾، وقال: ﴿بلسان عربي مبين﴾، وقال ابن عباس: الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه»[1].

وذهب جولـدتسهير إلى أن فكرة الاستشهاد بالشعر في تفسير الغريب والنادر جاءت نسبتها إلى ابن عباس في وقت متأخر، وهي الفكرة نفسها التي نسبت إلى الخليفة عمر بن الخطاب قبله[2]. وهذا التشكيك في المرويات وأسانيدها يفتقر إلى الدليل.

ويرى الدكتور إبراهيم السامرائي أن ابن عباس اعتمد منهجاً لم يسبق إليه وهو شرح ألفاظ القرآن والاستدلال عليها بما جاء في شعر العرب، فلم يكن الاحتجاج بالشعر معروفاً قبل الأجوبة التي أثرت عن ابن عباس في مسائل ابن الأزرق، وقد كان الكثير من علمـاء اللغـة يتجنبون هذا السبيل مخافة أن يقولوا في كلام الله شيئاً لا يحسنون الكلام فيه[3].

= فسرت «أجدر ألا تميلوا ولا تبخسوا» والشاهد عليها قول عبد الله بن الحارث بن قيس:

إنـا اتبعنـا رسـول الله واطـرحـوا قول الـنبي وعـالـوا في المـوازين

(سؤالات ص ١٩-٢٠).

(١) السيوطي: الإتقان: ١/١٢١.

(٢) جولدتسهير: مذاهب التفسير الإسلامي ص ٨٩.

(٣) د. إبراهيم السامرائي: سؤالات نافع بن الأزرق (المقدمة) ص٥.

وكان غياب الشعر عن تفسير القرن الأول والثاني الهجريين عند كل من مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة ومقاتل بن سليمان دافعاً للدكتور إبراهيم النجار إلى القول: «وبهـذا نصل إلى القول بأن الاستشهاد بالشعر لم يكن منهجاً صحيحاً من مناهج التفسير القرآني في مدرسة ابن عباس بالاعتماد على تفسيري سعيـد ومجاهد» وما ورد من شعر عندهم فهو نادر أو منحول، وكذلك يقال عن تفسير قتادة ومقاتل بن سليمان أن الشعر فيهما نادر لا يشكل ظاهرة تستحق الوقوف عندها[1].

وفات الباحث أن التفاسير التي أشار إليها واعتمد عليها في رأيه هي نتاج جمع ما نقـل في الكتب التي يعنيهـا التفسير المأثور لقتادة وليس شاهده، على أنه يظل لاستنتاجه قيمة ومحل من التقدير إلى أن يكشف التحقيق عن مخطوطات هذه التفاسير إن وجدت.

وتعد مسائل نافع بن الأزرق النموذج التطبيقي الأشمل الذي تعلق به الدارسون في منهج ابن عباس، وقد روى منها السيوطي مائة وتسعين مسألة على أنه حذف بضعة عشر سؤالاً منها، وأبان عن طرق روايتها فقال: «وقد روينا عن ابن عباس كثيراً من ذلك، وأوعب ما رويناه عن مسائل نافع بن الأزرق، وقد أخرج بعضها ابن الأنباري في كتاب الوقف، والطبراني في معجمه الكبير»[2].

وجاءت سؤالات نافع بن الأزرق لابن عباس في مخطوطة حققها الدكتور إبراهيم السامرائي، وقد اشتملت على مائتين وخمسين سؤالاً، تنتهي في إسنادها إلى عبد الصمد بن علي بن مكرم المعروف بابن الطسي، ويتفق إسناد مخطوطة السامرائي مع إسناد السيوطي إلى ابن الطسي، ويستمر الإسناد عند السيوطي بعد ذلك حتى ينتهي إليه بما يرشد إلى أن مصدر المرويتين واحد. وبذلك يكون لدينا أربعة طرق في إسناد هذه المسائل:

---

(١) د. إبراهيم النجار: تفسيري تنوير المقباس المنسوب لابن عباس - توثيق ودراسة - رسالة دكتوراه - جامعة القاهرة ١٩٨٠ ص ٢٦٤-٢٦٥.

(٢) السيوطي: الإتقان ١/١٢١.

أولها: رواية أبي بكر بن الأنباري (ت ٣٢٨هـ) في كتاب الوقف والابتداء وعدد المسائل فيها خمسون مسألة. قال ابن الأنباري[١]: حدثنا بشر بن أنس قال: حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن شقيق قال: حدثنا أبو صالح هدبة بن مجاهد قال: أخبرنا مجاهد بن شجاع قال: أخبرنا محمد بن زياد اليشكري عن ميمون بن مهران[٢].

والحديث ضعيف في سنده لوجود بشر بن أنس مجهول من الخامسة، ومحمد بن زياد اليشكري كذبوه[٣]، وميمون بن مهران ثقة وكان يرسل فلا يقبل إلا إذا جاء مصرحاً بالتحديث[٤] أما مجاهد بن شجاع وأبو صالح هدبة بن مجاهد فليسا من رجال الكتب الستة ولم يوجدا في كتاب الجرح والتعديل أو ميزان الاعتدال. وأما محمد بن علي بن الحسن بن شقيق فهو ثقة صاحب حديث[٥].

وثانيها: رواية الطبراني في المعجم الكبير، قال أبو يعلى عن فلان بن محمد بن خالد عن هشام، وعن الضحاك بن مزاحم الهلالي قال: خرج نافع بن الأزرق ونجدة بن عويمر... فذكره.

وقال السيوطي: أخرج الطبراني في معجمه الكبير من طريق جويبر عن الضحاك بن مزاحم قال خرج نافع بن الأزرق فذكره.

وهذه الرواية ضعيفة أيضاً، قال الهيثمي: رواه الطبراني وفيه جويبر وهو متروك[٤].

وثالثها: رواية السيوطي قال: أخبرني أبو عبد الله محمد بن علي الصالحي

---

(١) انظر هذا السند أيضاً في الإتقان ١/١٣٤.

(٢) أبو بكر بن الأنباري: كتاب إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل تحقيق محي الدين رمضان ج١/٧٦. ط مجمع اللغة العربية دمشق ١٩٧١.

(٣) ابن حجر العسقلاني: تقريب التهذيب ٢/١٦٢.

(٤) المصدر نفسه: ٢/٢٩٢. (٥) الهيثمي: مجمع الزوائد ٦/٣١٠.

بقراءتي عليه عن أبي اسحق التنوخي عن القسام بن عساكر، أنبأنا أبو نصر محمد بن عبد الله الشيرازي أنبأنا أبو المظفر محمد بن أسعد العراقي، أنبأنا أبو علي محمد بن سعيد بن نبهان الكاتب، أنبأنا أبو علي بن شاذان، حدثنا أبو الحسين عبد الصمد بن علي بن محمد بن مكرم المعروف بابن الطسي، حدثنا أبو سهل السري بن سهل الجنديسابوري حدثنا يحيى بن أبي عبيدة بحر بن فروخ المكي، أنبأنا سعد بن أبي سعيد، أنبأنا عيسى بن دأب عن حميد الأعرج وعبد الله بن أبي بكر عن أبيه قال بينما عبد الله بن عباس جالس بفناء الكعبة. . .[1].

والحديث ضعيف السند أيضاً لوجود عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب الليثي المدني كان إخبارياً علاماً نسابا، لكن حديثه واهن، قال خلف الأحمر: كان يضع الحديث، وقال البخاري وغيره: منكر الحديث، وقال أبو حاتم منكر الحديث[2]. وحميد الأعرج ضعيف[3]. وسعد بن أبي سعيد لين الحديث[4]. وأما عبد الله بن أبي بكر بن محمد فهو ثقة وأبو سهل السري بن سهل الجنديسابوري وهو ابن زنجله صدوق[5].

ورابعها: ما رواه أبو عبيدة معمر بن المثنى عن أسامة بن زيد عن عكرمة، وهي ضعيفة لأن أبا عبيدة لم يدرك أسامة بن زيد إذ توفي أسامة في ٥٨هـ وولد أبو عبيدة في ١١١هـ، وهو كذاب خارجي شعوبي متهم في دينه[6].

وبذلك يتضافر الضعيف والمتروك واللين والمنكر وما إلى ذلك من صفات الرواة على التقليل من شأن هذه المسائل في الدلالة على منهج ابن عباس في هذه الطرق الأربعة.

---

(١) السيوطي: الإتقان ١/١٢١، وسؤالات نافع بن الأزرق ص٨.

(٢) الذهبي: ميزان الإعتدال جـ٣/٣٢٥ ترجمة رقم ٦٦٢٥.

(٣) ابن حجر العسقلاني: تقريب التهذيب ٢٠٤ ترجمة ٦١٨.

(٤) ابن حجر: تقريب التهذيب ص ٢٨٧. (٥) المصدر نفسه ترجمة رقم ٥٥٤.

(٦) انظر الكامل للمبرد ٣/٢٢٢ وميزان الاعتدال ٢/٦٦٢.

ويتباين عدد هذه المسائل في هذه الطرق تبايناً دالاً على تزيّد مقصود في زمن ما على أصل هذه المسائل، فهي عند ابن الأنباري خمسون، وعند الطبراني ست وثلاثون وعند السيوطي تسعون ومائة، وفي رواية ابن الطسي خمسون ومائتان، وكان الطبراني (ت ٣٦٠هـ) معاصراً لابن الأنباري (ت ٣٢٨هـ) وأن ابن الطسي قرئت عليه سؤالات نافع بن الأزرق من لفظه في مسجده بدرب رباح يوم الخميس لعشر خلون من ربيع الآخر من سنة أربع وأربعين وثلثمائة، وأنه قرأها على أبي سهل السري بن حربان الجنديسابوري سنة ثمان وثمانين ومائتين[1]، فمعنى ذلك أن القرن الرابع الهجري هو الزمن الذي شهرت فيه هذه المسائل، ومن عجب أنها متباينة العدد على الرغم من تعاصر رواتها، فهل كان هذا القرن هو زمن وضعها أو الزيادة عليها؟! أم أنها كانت معروفة بالعدد ذاته في القرن الثالث الهجري كما تشير قراءة ابن الطسي على الراوية الصدوق أبي سهل بن السري الجنديسابوري؟!.

وحاول بعض الباحثين الكشف عن جذور هذه المسائل في تفسير الطبري الذي يضم الآثار بأسانيدها، ويعتمد الشعر ركناً أساساً في تفسير غريب القرآن، فوجد الطبري يستشهد بهذه المسائل في عشرة مواطن، ثلاثة منها فقط استشهد فيها ابن عباس بالشعر، إلّا أن هذه الآثار الثلاثة تختلف في رواية سندها عمّا جاء في رواية ابن الطسي أو ابن الأنباري أو الطبراني. وانتهى بذلك إلى القول: «إن هذا يقودنا إلى الشك في الشواهد التي جمعها الطسي، إذ ربما لا تكون قيلت في ذلك اللقاء، بل جمعت عن ابن عباس في كل المناسبات التي استشهد فيها بشعر، وحملت على واقعة واحدة، وهذا الرأي يميل إليه الإنسان؛ لأنه لا يصدق عقل أن يسأل نافع عن مائتين وخمسين سؤالاً ويجيبه عليها ابن عباس في جلسة واحدة تحفظ كلها»[2].

ومما يزيد في احتمال نحل هذه المسائل على ابن عباس وضعف دلالتها على منهجه في تفسير غريب القرآن، أن أجوبة بعض الأسئلة بعيدة عن قصد السؤال

---

(١) سؤالات نافع بن الأزرق ص ٨.

(٢) إبراهيم النجار: تفسير تنوير المقباس المنسوب إلى ابن عباس ص٢٦١.

وغايته، بمعنى أن الشاهد الشعري لا يقع ضمن حدود المعنى اللغوي المفسر به قول الله تعالى في الآيات المسؤول عنها، ومثال ذلك قوله: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿من حمأ مسنون﴾ قال: الحمأ: السوداء وهو الثاط أيضاً، والمسنون: المصور، قال: فهل تعرف العرب ذلك، قال: نعم، أما سمعت حمزة بن عبد المطلب وهو يمدحه عليه السلام:

أغـر كأن الـبـدر سنـة وجـهـه جلا الـغـيم عنـه ضوؤه فتـبـددا»[1]

فالسؤال عن صفة الطين المخلوق منه الإنسان، والجواب عنه صورة تشبيهية لجمال الوجه، بياضه ونقائه.

ومن ذلك أيضاً قول ابن الأزرق: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿أثاثاً ورئيا﴾، قال: الأثاث: المتاع، واالرئي من الشراب، قال: وهل تعرف العرب ذلك، قال: نعم، أما سمعت الشاعر يقول:

كأن على الـحـمـول غداة ولـوا من الـرئـي الكـريم من الأثـاث»[2]

وتفسير الرئي بالشراب مذهب بعيد عن فهم المفسرين فضلاً عن أن دلالة الرئي في البيت مقيدة بالمظهر (من الرئي الكريم من الأثاث) يقول الفراء: «وقوله: «أحسن أثاثاً ورئيا». الأثاث: المتاع، والرئي: المنظر، والأثاث لا واحد له، والعرب تجمع المتاع: أمتعة وأماتيع ومتعاً، ولو جمعت الأثاث لقلت: ثلاثة آثة، وأثث لا غير، وأهل المدينة يقرؤنها بغير همز (وريًا) وهو وجه جيد، لأنه مع آيات لسن بمهموزات الأواخر، وقد ذكر عن بعضهم أنه ذهب بالري إلى رويت، وقد قرأ بعضهم وزيًا بالزاي، والزي: الهيئة والمنظر»[3].

وقال أبو جعفر النحاس: روى الأعمش عن أبي ظبيان عن ابن عباس قال:

---

(١) سؤالات نافع بن الأزرق ص ١٧.

(٢) السيوطي: الإتقان ١/١٢١.

(٣) الفراء: معاني القرآن ٢/١٧١.

الأثاث المتاع، والرئي: المنظر»[1] «وقال الأخفش: يجوز أن يكون من ري المطر»[2] أي من الري والنعمة.

ومن ذلك أيضاً قول ابن الأزرق: يا ابن عباس أخبرني عن قول الله تعالى: ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾. قال وجدنا آباءنا على ملة غير الملّة التي تدعونا إليها، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت نابغة بني ذبيان وهو يقول [والبيت لعنتره]:

فاقني حياءك لا أبالك واعلمي أني امرؤ سأموت إن لم أقتل»[3]

فالسؤال عن الأمة، والشاهد لا ذكر للأمة فيه، بل هو بعيد كل البعد عن مطلب الحوار.

ومن ذلك أيضاً سؤال ابن الأزرق عن قول الله تعالى: ﴿أو لامستم النساء﴾ قال ابن عباس: جامعتم النساء، وهذيل تقول اللمس باليد، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم: أما سمعت لبيد بن ربيعة وهو يقول:

يلمس الأحلس في منزله بَيدَيْه كاليهودي المقل[4]

إذ الشاهد لا يستقيم دليلاً على تفسير الآية، فاللمس في قول لبيد معناه الطلب، والأحلس كساء رقيق يكون على ظهر البعير تحت رحله، والمعنى يطلب هذا الكساء بيديه وهو لا يعقل من غلبة النعاس، قال أبو الحسن الطوسي: كأنه يهودي يصلي في جانب يسجد على جبينه، قال البغدادي: واليهودي يسجد على شق وجهه[5].

---

(١) أبو جعفر النحاس: معاني القرآن الكريم ٤/٣٥٢.

(٢) المصدر نفسه ٤/٣٥٣.

(٣) سؤالات ابن الأزرق ص ٤٩.

(٤) سؤالات ابن الأزرق ص٦٠ ورواية الديوان المصل.

(٥) ديوان لبيد بن ربيعة تحقيق د. إحسان عباس ص ١٨٣.

وفي بعض الشواهد الشعرية مكتسبات إسلامية أفادها الشعراء من الدلالة القرآنية، فالكوثر في اللغة: الكثير من كل شيء، وله دلالة أخرى إسلامية هي الإسلام والنبوّة[1]. ونجده مفسراً في كلام ابن عباس بأنه نهر في الجنة. قال ابن الأزرق: «يا ابن عباس أخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿إنّا أعطيناك الكوثر﴾ قال: نهر في بطنان الجنة، حافته قباب الدر والياقوت، قال وبأي شيء ذكر ذلك؟ قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل باب المروة وخرج من باب الصفا فاستقبله العاص بن وائل السهمي، فرجع العاص إلى قريش، فقالت له قريش: من استقبلك يا أبا عمرو آنفاً؟ قال: ذاك الأبتر، يريد: النبي صلى الله عليه وسلم، فما برح رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أنزل الله هذه السورة ﴿إنّا أعطيناك الكوثر﴾ نهر في بطنان الجنة، حافتاه قباب الدر والياقوت فيها أزواجه وخدمه، ثم قال: فصل لربك وانحر البدن، إن شانئك هو الأبتر، يعني: إن عدوك هو العاص بن وائل السهمي الأبتر من الخير، لا أذكر مكاناً إلا ذكرت معي يا محمد، فمن ذكرني ولم يذكرك ليس له في الجنة نصيب، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت حسان بن ثابت وهو يقول:

وحباه الإله بالكوثر الأكـ بر فيه النعيم والخيران»[2]

وإذا تجاوز الباحث هذه المناسبة التي تبدو غريبة عن جوّ المسائل عامة في تفرد هذا الموضع بها من ناحية، وحشوها بين اختصاص السؤال بجوابه بإقحام سؤال آخر من ناحية أخرى، فإن الشاهد في شعر حسان يحمل الدلالة الإسلامية القرآنية الجديدة لا الدلالة اللغوية في كلام العرب.

زد على ذلك أن تفسير الكوثر: بالنهر في الجنة غريب عمّا هو مسند إلى ابن عباس، ففي معاني القرآن للفراء قال: قال ابن عباس: هو الخير الكثير، ومنه القرآن. وأسند الفراء تفسير الكوثر بالجنة إلى عائشة قال: وحدثني مندل بن علي العنزي

---

(١) القاموس المحيط مادة: كثر.

(٢) سؤالات نافع بن الأزرق ص ٥٧.

بإسناد رفعه إلى عائشة قالت: الكوثر: نهر في الجنة، فمن أحب أن يسمع صوته فليدخل اصبعيه في أذنيه»[1].

ودلالة الغرور على الباطل دلالة إسلامية في كتاب الله الكريم، ومنها قول الله تعالى: ﴿إن الكافرون إلا في غرور﴾ قال ابن عباس مفسراً لها: ما الكافرون إلا في باطل واستدل عليه بقول حسان بن ثابت يهجو أُبي بن خلف[2]:

تمنيك الأماني من بعيد وقول الكفر يرجع في غرور

وقول حسان متأثر بقول الله تعالى تأثراً مباشراً، بل إنه يقتبس الآية الكريمة نصاً، فالغرور بمعنى الباطل دلالة إسلامية أفادها حسان من الإسلام، فلا يستقيم الشاهد دليلاً.

ومن ذلك أيضاً المكاء والتصدية في قول الله تعالى: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية﴾ نقل حسان هذا الوصف في قوله:

نقوم إلى الصلاة إذا دُعينا وهمكم التصدي والمكاء[3]

وأعجب من ذلك وأغرب أن يستشهد ابن عباس ببيت شعر من قصيدة عمر بن أبي ربيعة التي استمع إليها ابن عباس فيما يزعم الرواة بعد أن أَمَلَّه ابن الأزرق بأسئلته[4]، قال ابن الأزرق: «يا بن عباس! أخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿وإنك لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾ قال: لا تعرف فيها من شدة حر الشمس، قال: فهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت قول الشاعر وهو يقول:

---

(١) الفراء: معاني القرآن ٣/ ٢٩٥-٢٩٦.

(٢) سؤالات نافع ابن الأزرق ص ٣٣ والإتقان ١/ ١٢٩ وتجدر الإشارة أن الغرور سئل عنه ابن الأزرق في موضع آخر ص ٦٢ والتفسير متفق، لكن الشاهد مختلف.

(٣) سؤالات نافع بن الأزرق ص ٥٤.

(٤) انظر أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ١/ ٧١-٧٢.

رأت رجـلاً أمـا إذا الشمس عارضت فيضـحـى وأمـا بالـعشي فيخصـر[1]

فهذا البيت من رائية عمر بن أبي ربيعة متأخر في علم ابن عباس عن زمن أسئلة ابن الأزرق له، فكيف يكون شاهداً قبل سماعه له؟!

وأدل من ذلك على النحل والاجتهاد في الزيادة من غير تدقيق سؤال ابن الأزرق ابن عباس عن قول عمر بن الخطاب: «كذَبَ عليكم الحج» قال: يعني بقوله: عليكم بالحج، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت الهذلي وهو يقول:

وذبـيانـة أوصـت بنـيهـا بأن كذَبَ الـقـراطـف والـقـروف

قال زدني يابن عباس قال: وقال رجل آخر من هذيل:

كذب الـعـتـيق ومـاء شنٍّ بارد إن كنت سائـلة غبـوقـاً فاذهـبـي[2]

فأي علاقة بين قول عمر هذا وتفسير القرآن؟ إن الأسئلة مدارها على آيات مشكلة في كتاب الله، وتطرد الأسئلة نمطيَّة حولها، فما الذي أقحم قول عمر في هذه المسائل؟!

مما سبق يتبدى ضعف الاستدلال بهذه المسائل على منهج ابن عباس، ونحل كثير منهـا عليه، غير أنهـا غير ملغية منهجه في الاستدلال بالشعر شاهداً من كلام العرب على ألفاظ القرآن.

ولقاء ابن الأزرق بابن عباس في الحرم المكي حقيقة تثبتها المصادر المتعددة، غير أن منها ما يجعل مجريات الحوار تدور حول غير هذه المسائل. روى الطبري قال: «حدثنا وكيع قال ثنا أبي عن سفيان عن عاصم عن أبي رزين قال: سائل نافع بن الأزرق ابن عباس: هل تجد ميقات الصلوات الخمس في كتاب الله، قال: نعم: فسبحان الله حين تمسون: المغرب، وحين تصبحون: الفجر، وعشياً: العصر، وحين

(١) سؤالات نافع بن الأزرق ص ١٢ والإتقان ١/١٢٣.

(٢) سؤالات نافع بن الأزرق ص ٤٣.

تظهرون الظهر، قال ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم[1]».

وفي موضع آخر كان سؤال ابن الأزرق لابن عباس عن بعض متشابه القرآن، يقول الطبري: «حدثني المثنى قال: حدثنا مسلم بن إبراهيم قال: حدثنا القاسم قال: حدثنا الزبير عن الضحاك أن نافع بن الأزرق أتى ابن عباس فقال: يابن عباس قول الله تبارك وتعالى: ﴿ويومئذٍ يود الذين كفروا وعصوا لو تسوّى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا﴾ وقوله: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ فقال له ابن عباس: إني أحسبك قمت من عند أصحابك فقلت: أُلقي على ابن عباس متشابه القرآن، فإذا رجعت إليهم فأخبرهم أن الله جامع الناس يوم القيامة في بقيع واحد، فيقول المشركون: إن الله لا يقبل من أحد شيئاً إلا ممن وَحَّدَه، فيقولون تعالوا نقل: فيسألهم فيقولون «والله ربنا ما كنا مشركين» قال فيختم على أفواههم، ويستنطق جوارحهم فتشهد أنهم كانوا مشركين، فعند ذلك تمنوا لو أن الأرض سويت بهم ولا يكتمون الله حديثا»[2].

وفي رواية ثالثة كان اهتمام نافع بن الأزرق بالألفاظ غير العربية في القرآن، يقول أبو زيد القرشي: حدثنا المفضل بن عبد الله بن محمد الضبي يرفعه إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «قدم نافع بن الأزرق الحروري إلى ابن عباس يسأله عن القرآن، فقال ابن عباس: يا نافع؛ إن القرآن كلام الله عز وجل، خاطب به العرب بلفظها على لسان أفصحها، فمن زعم أن في القرآن غير العربية فقد افترى، قال تعالى: ﴿قرآناً عربياً غير ذي عوج﴾، وقال تعالى: ﴿بلسان عربي مبين﴾، وقد علمنا أن العجم ليسوا قومه، وأن قومه هذا الحي من العرب، وكذلك أنزل التوارة على موسى عليه السلام بلسان قومه بني إسرائيل وكذلك أنزل الإنجيل على عيسى عليه السلام، لا يشاكل لفظه لفظ التوراة لاختلاف لسان قوم موسى وقوم عيسى، وقد يقارب اللفظ

---

(١) الطبري: جامع البيان جـ ٢١ ص ٢٩ طبعة البابي الحلبي.

(٢) المصدر السابق ٨/ ٣٧٤ طـ دار المعارف.

اللفظ أو يوافقه، وأحدهما بالعربية والآخر بالفارسية أو غيرها. . . وقد يداني الشيء الشيء وليس من جنسه. . . »[1].

وهذه المسائل من متشابه القرآن والمعرب والاعجمي من الألفاظ فيه، وغير ذلك من المسائل التي قد يكشف عنها تتبع المصادر؛ أجدر بالإثارة والفتيا، وأليق بالسائل عن وجوه متعددة من القرآن بدلاً من رتابة السؤال وتكرار غايته.

وليس بمقدور الباحث الإشارة إلى رجل بعينه كانت صناعة هذه المسائل على يديه، لكن الوسط اللغوي في القرن الثالث الهجري كان أكثر الأوساط العلمية اهتماماً بهذه المسألة من جهات ثلاثة:

أولها: الاهتمام بالإسناد في الرواية، لا يريد بذلك الاّ شهادة الزمن على اتصال النسب العلمي الذي كان معنياً باتصاله.

ثانيها: أن هذه الطبقة من اللغويين إنما طلبت رواية الأدب للقيام به على تفسير ما يشتبه من غريب القرآن والحديث.

ثالثها: أن أقدم رواتها هو أبو عبيدة معمر بن المثنى الذي رواها عنه المبرد.

وأياً كان الرأي في مصدر هذه المسائل، ابن عباس أو أهل اللغة، فإن فيها منهجاً لرواية الشواهد التعليمية يتصل الإحسان به من ناحيتين:

أولهما: إطلاق رواية الشواهد التعليمية من غير قيد.
ثانيهما: النزعة التربوية الخلقية.

أولاً: إطلاق الشواهد التعليمية دون قيد:ـ

إن هذه المسائل تؤكد على أن الاستدلال بالشعر في مجال الشواهد تفسيراً أو تعليماً لا قيد عليه مهما يكن فساده، فالهجاء والغزل غرضان يدوران غالباً على معانٍ

(١) أبو زيد القرشي: جمهرة أشعار العرب ١/٢.

بعيدة عن الحسن والإحسان، ومع ذلك فقد جاء منهما الشاهد والمثل في هذه المسائل. فمن الهجاء ما جاء شاهداً على تفسير قول الله تعالى ﴿شواظ من نار﴾ من شعر أمية بن أبي الصلت يهجو حسان بن ثابت:[1]

ألا من مبلغ حسان عني ... مغلغلة تدب إلى عكاظ
أليس أبوك فينا كان قيناً ... لدى القينات فسلاً في الحفاظ
يمانياً يظل يشب كيراً ... وينفخ دائباً لهب الشواظ

فأجابه حسان بن ثابت:

أتاني عن أمي ثنا كلام ... وما هو في المغيب بذي حفاظ
ستأتيه قصائد محكمات ... وتنشد بالمجاز إلى عكاظ
همزتك فاختضعت بذل لفظ ... بقافية تأجج كالشواظ

وهجاء حسان بن ثابت أيضاً لأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب:

أتهجو ولست له بند ... فشركما لخيركما الفداء

جاء شاهداً على تفسير قول الله تعالى: ﴿وتجعلون له أنداداً﴾[2] أي: «أشباهاً وأمثالاً».

وهجاء الأعشى لعلقمة بن علاثة الذي جاء النهي عن روايته في حديث مردود:

تبيتون في المشتاء ملأى بطونكم ... وجاراتكم سغب يبتن خمائصا

كان شاهداً على تفسير قول الله تعالى ﴿مخمصة﴾ أي: مجاعة[3].

---

(١) سؤالات نافع بن الأزرق ص ١٣.
(٢) المصدر نفسه ص ١٦.
(٣) السيوطي: الإتقان ١/١٣٤ وسؤالات نافع بن الأزرق ص ٦١.

وللغزل تنوع في هذه المسائل ينتظم الوصف التجسيدي للمفاتن والحديث التعبيري بالإيحاء عن اللقاء وحركاته، أو بالكناية عن الجماع ودلالاته. فمن الغزل بالمفاتن قول امرىء القيس:

دار بيضاء العوارض طفلة مهضومة الكشحين ريا المعصم

وهو شاهد على تفسير قول الله تعالى: ﴿طلعها هضيم﴾[1].

وقول بشر بن أبي خازم:

هضيم الكشح لم تغمر ببؤسى ولم تنعق بناحية الرباق

شاهد على تفسير قول الله تعالى: ﴿كمثل الذي ينعق بما لا يسمع﴾[2].

وكان قول امرىء القيس:

تمشي فتثقلها عجيزتها مشي الضعيف ينوء بالوسق

شاهداً في تفسير قول الله تعالى ﴿لتنوء بالعصبة﴾ بمعنى تثقل[3].

وجاء قول الشاعر:

إذا مشت وسط النساء تأودت كما اهتز غصن ناعم النبت يانع

شاهداً في تفسير قول الله تعالى: ﴿انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه﴾[4].

ومن وصف مواطن اللقاء بين الرجل والمرأة قول النابغة الذبياني:

إذا ما الضجيع ثنى عطفها تثنت عليه فكانت لباسا

وهو دليل في تفسير قول الله تعالى: ﴿هن لباس لكم﴾[5].

---

(١) المصدر نفسه ١/١٢٩.

(٢) سؤالات نافع بن الأزرق ص ٥٤.

(٣) الإتقان: ١/١٣٣.

(٤) المصدر نفسه ١/١٢٢.

(٥) سؤالات نافع بن الأزرق ص٥٤.

وقول امرىء القيس:

ألا زعمت بسباسة اليوم أنني كبرت وأن لا يحسن السرّ أمثالي

دليل على أن مقصود قول الله تعالى: ﴿لا تواعدوهن سرّاً﴾ هو الجماع[1].

ثانياً: النزعة التربوية الخلقية:ـ

لا يحتاج الباحث في مسائل ابن الأزرق للنظر طويلاً لإدراك التوجه الخلقي في انتخاب هذه الأمثلة والشواهد، ويتجلى ذلك ظاهراً في محاور ثلاثة:

أولاً: الشعر الديني الجاهلي.
ثانياً: شعر القيم الخلقية.
ثالثاً: شعر الدعوة الإسلامية.

١ـ ويتصدر شعر أمية بن أبي الصلت أحد المتحنفين في الجاهلية نماذج الشعر الديني الذي جاء الاحتجاج به في مسائل ابن الأزرق، وهي ذات طابع تعبدي فيه الثناء على الله بما هو أهله والتضرع إليه بالدعاء والاستغفار، فمن ذلك قول أمية:

لك الحمد والنعماء والملك ربنا فلا شيء أعلى منك جداً وأمجد
مليك عرش السماء مهيمن لعزته تعنو الوجوه وتسجد
عليه حجاب النور والنور حوله وأنهار نوره حوله تتوقد

الذي استشهد به مثالاً لغوياً لقول الله تعالى «جد ربنا»[2].

وقوله:

---

(١) السيوطي: الإتقان ١/٣٣/ وسؤالات نافع ص ٥٠.

وهذه المسألة أخرجها الفراء من غير إشارة لنافع قال: حدثني حبان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال: السر في هذا الموضوع النكاح وأنشد عنه بيت امرىء القيس:
ألا زعمت.... البيت معاني القرآن ١/١٥٣.

(٢) سؤالات نافع بن الأزرق: ص٢٢ والإتقان ١/١٢٦ مع اختلاف في عدد أبيات الشاهد.

أركسوا في جهنم إنهم كانوا عتاة يقولون كذباً وزورا

شاهد لقول الله تعالى: ﴿أركسهم﴾[1].

وقوله:

إن تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك إلا ألما

شاهد لقول الله تعالى: ﴿وتحبون المال حباً جما﴾[2]

وقوله:

من يطمس الله عينيه فليس له نور يبين به شمساً ولا قمرا

شاهد في تفسير قول الله تعالى: ﴿قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها﴾ بمعنى «من قبل أن نمسخها فنردها على أدبارها»[3].

وقوله أيضاً:

عبادك يخطئون وأنت رب بكفيك المنايا والحتوم

شاهد لقول الله تعالى: ﴿كان على ربك حتماً مقضيا﴾[4].

وقوله أيضاً:

وشقَّ أبصارنا كيما نعيش بها وجاب للسمع أصماخاً وآذاناً

شاهد لقول الله تعالى: ﴿وجابوا الصخر بالواد﴾ أي نقبوا الحجارة فاتخذوا منها بيوتاً[5].

وقوله أيضاً:

ولا يوم الحساب وكان يوماً عبوساً في الشدائد قمطريرا

---

(١) السيوطي: الإتقان ١/١٣٠.

(٢) الإتقان: ١/١٣٤.

(٣) سؤالات نافع: ص٦٠.

(٤) المصدر نفسه ص٤٣ والإتقان ص١/١٣١.

(٥) سؤالات نافع ص ٥٦ والإتقان ١/١٣٣.

شاهد لقول الله تعالى: ﴿عبوساً قمطريرا﴾[1].

ومن شعر زيد بن عمرو بن نفيل الذي كان متحنفاً في الجاهلية قوله:

إن الاله عزيز واسع حكم بكفه الضر والبأساء والنعم

وهو شاهد لقول الله تعالى: ﴿بالبأساء والضراء﴾[2] ومعناها: البأساء: الخصب، والضراء: الجدب».

ومن شعر عدي بن زيد العبادي الذي كان نصرانياً ممن قرأ الكتب كما يقول لجاحظ، جاء في مسائل ابن الأزرق قوله:

قانتاً لله يرجو عفوه يوم لا يكفر عبد ما ادخر

شاهداً لقول الله تعالى: ﴿كل له قانتون﴾ بمعنى مقرون[3].

وكان قوله:

فهل من خالد إما هلكنا وهل بالموت يا للناس عار

شاهداً لغوياً من كلام العرب في تفسير قول الله تعالى: ﴿وهم فيها خالدون﴾[4].

وفي هذه الآية كان قول لبيد بن ربيعة شاهداً أيضاً:

كل بني أم وإن كثروا يوماً بصيرون إلى واحد
فالواحد الباقي قد مضى ليس بمتروك ولا خالد

٢ـ وللقيم الخلقية في الشعر الجاهلي حضور بين في هذه المسائل من ذلك قول زهير بن أبي سلمى[5]:

---

(١) سؤالات نافع بن الأزرق ص٢١ والإتقان ١/١٢٦.

(٢) سؤالات نافع بن الأزرق ص ٣٤ وانظر مثالاً آخر ص٦٠.

(٣) السيوطي: الاتقان ١/١٢٦.

(٤) المصدر نفسه ١/١٢٤ وسؤالات نافع ص ١٥.

(٥) المصدر نفسه ١/١٢٢.

على مكثريهم حق من يعتريهم وعند المقلين السماحة والبذل

وقول الأعشى[1]:

حافظ للفرج راض بالتقى ليس ممن قلبه فيه مرض

وقول النابغة[2]:

فلا تحسبون الخير لا شر بعده ولا تحسبون الشر ضربة لازب

وقول أمية بن أبي الصلت[3]:

برىء من الآفات ليس بأهل ولكن المسيء هو المليم

وقول الشاعر[4]:

وحصور عن الخنا يأمر النا س بفعل الخيرات والتشمير

وقول لبيد[5]:

لا تسألان المرء ماذا يحاول أنحب فيقضى أم ضلال وباطل

وقول عبيد بن الأبرص[6]:

يعفو عن الجهل والسوآت كما يدرك غيث الربيع ذو الصرد

وقول الشاعر[7]:

أجامل أقواماً حياءً وقد أرى صدورهم تغلي علي مراضها

٣ـ أما شعر الدعوة الإسلامية فقد حفلت مسائل ابن الأزرق بنصيب وافر منه بأغراضه من مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ودعوة المشركين للإسلام وتهديدهم وهجائهم وبشعرائه من الأنصار حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة، ومن

---

(١) المصدر نفسه ١/١٣٤.

(٢) المصدر نفسه ١/١٢٤. (٣) المصدر نفسه ١/١٢٥.

(٤) المصدر نفسه ١/١٢٨ وسؤالات نافع بن الأزرق ص٣٣.

(٥) المصدر نفسه ١/١٢٧.

(٦) سؤالات نافع بن الأزرق ص ٥٣. (٧) المصدر نفسه ص ٥٧.

المهاجرين علي بن أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب أو ممن أسلم بعد الفتح مثل أبي سفيان بن الحارث، ولبيد بن ربيعة والأعشى، وقد بلغ مجموعها خمسة وثلاثين شاهداً.

ويحظى حسان بن ثابت رضي الله عنه في هذه الشواهد بالنصيب الأوفى، إذ جرى ذكر شعره شاهداً في التفسير في اثني عشر موضعاً، فمن فخره بالإسلام وتأييد الله للمسلمين لإيمانهم قوله:

برجال لستم أمثالهم أيدوا جبريل نصراً فنزل
وعلونا يوم بدر بالتقى طاعة الله وتصديق الرسل

وهو شاهد لقول الله تعالى: ﴿والله يؤيد بنصره من يشاء﴾[1].

ومن هجائه المشركين قوله في أُبيَّ بن خلف:

ألا مَنْ مبلّغ عني أُبيّاً فقد ألقيت في سحق السعير

وهو مثل لمعرفة العرب بقول الله تعالى: ﴿فسحقاً لأصحاب السعير﴾[2].

ومن تهديده ووعيده للمشركين قوله[3]:

عدمنا خيلنا إن لم تروها تثير النقع موعدها كداء

وقوله:

فإما تثقفن بنو لؤيٍ جذيمة إن قتلهم دواء

وهو جواب لسؤال ابن الأزرق عن قول الله تعالى: ﴿حيث ثقفتموهم﴾[4].

ولكعب بن مالك رضي الله عنه يرثي رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله:

---

(١) المصدر نفسه ص ١٣. (٢) المصدر نفسه ص ٣٢.

(٣) (٤) المصدر المصدر نفسه ص ٣٠ وانظر أمثلة وشواهد أخرى ص١١، ٣٨، ٣٩، ٤٥، ٥٤، ٦٠.

فتـغـيـر الـقـمـر الـمـنـير لفـقـده والـشـمس كسـفـت وكـادت تأفـل

وهو جواب عن سؤال ابن الأزرق عن قول الله تعالى: ﴿فلما أفلت﴾[1].

ومن تهديده للمشركين قوله يعرض صورة من صور عذابهم في جهنم:

تلظى عليهـم حين شد حميها بزبـر الـحـديد والـحـجـارة ساجـر

وهو شاهد لقول الله تعالى: ﴿زبر الحديد﴾[2].

ولعبد الله بن رواحة حملت المسائل قوله:

وعـسـى أن أفـوز ثم أُلـقـى حجـة الـتـقـى بهـا الـفـتـانـا

شاهداً لقول الله تعالى: ﴿فقد فاز﴾[3].

وقوله في معركة مؤتة:

حينـاً يقـولـون إذا مروا على جدثي ارشـده يا رب من غاز وقـد رشـدا

شاهداً على قول الله تعالى: ﴿فإذا هم من الاجداث﴾[4].

وهنـاك ثلاثـة شواهد شعرية لحمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم والثناء على الله أن هداه للدين الحنيف[5]، وشاهدان للبيد بن ربيعة من قصيدته اللامية المقيدة في معنى الفلاح والند[6].

على أن الملفت للنظر أن تشمل مسائل ابن الأزرق على خمسة من الشواهد لأبي سفيان بن الحـارث بن عبـد المطلب، منها بيتان في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبيتان في الثناء على الله، فمما مدح به الرسول صلى الله عليه وسلم قوله:

لقـد نطق المـأمـون بالصـدق والهـدى وبـين للإسـلام دينـاً ومـنـهـجـا

---

(١) سؤالات نافع بن الأزرق ص ٢٦.
(٢) المصدر نفسه ص ٣٢.
(٣) المصدر نفسه ص ٢١.
(٤) المصدر نفسه ص ٤٦.
(٥) انظر المصدر نفسه ص ١٧، ٣١، ٣٢.
(٦) انظر المصدر نفسه ص١٣، ١٦.

وذلك في الاحتجاج لقول الله تعالى: ﴿شرعة منهاجاً﴾[1].

وقوله في مدحه أيضاً:

يدعو إلى الحق لا يبغي به بدلا يجلو بضوء سناه داجي الظلم

شاهد لقول الله تعالى: ﴿يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار﴾[2].

ومن حديث أبي سفيان بن الحارث عن فضل الله وهدايته قال:

وبالغيب آمنا وقد كان قومنا يصلون للأوثان قبل محمد

وهو شاهد لقول الله عز وجل: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾[3].

وقال أيضاً:

عجبت لحلم الله عنا وقد بدا له صدفنا عن كل حق منزل

وهو الشاهد على قوله تعالى: ﴿وهم يصدفون﴾[4].

وإنما كانت هذه الأبيات ملفتة للنظر لأن أكثر شعر أبي سفيان منحول، يقول ابن سلام: «ولسنا نعد ما يروي ابن اسحاق له ولا لغيره شعراً، ولأن لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذاك لهم»[5]، وهذه الأبيات مما لم يرد لها ذكر في السيرة في إسلام أبي سفيان.

وهكذا ينهي هذا الاتجاه التربوي الخلقي في رواية الشواهد التعليمية إلى ملاحظتين هامتين:

أولهما: أن هذا العدد الكبير من شواهد الشعر الإسلامي الصحيح منه والمنحول مدعاة لتأكيد ما سبق به الظن من أن لغويي القرن الثالث يقفون وراء هذه المسائل زيادة ووضعاً وتطويلاً، إذ يشي هذا العدد بانتصار للشعر الإسلامي في جانب من

(١) المصدر نفسه ص ٩. (٢) المصدر نفسه ص ١٠.

(٣) سؤالات نافع بن الأزرق ص ٥٨. (٤) المصدر نفسه ص ٢٦.

(٥) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ١/٢٤٧.

جوانب اللغة، بعد أن أهدر لغويو القرن الثاني الهجري جانباً آخر منه بعدم الاحتجاج به، حيث يقول الأصمعي: «جالست أبا عمرو بن العلاء عشر حجج فما وجدته يحتج ببيت إسلامي»[1].

ثانيهما: نزوع الشاهد التعليمي في هذه المسائل منزعاً دينياً خلقياً عاماً واتجاهه اتجاهاً إسلامياً خاصاً، إذ تتكامل الشواهد في غالبيتها في منهج متوحد الاتجاه على الرغم من تباين الزمن بين الجاهلية والإسلام، مما يحمل ذلك على القول إن المدار في عمل هذه المسائل، سواء في انتمائها إلى ابن عباس أو إلى اللغويين، مرشد إلى ضرورة حسن اختيار النموذج والمثال في مجال التعليم، وموجّه إلى أن الشاهد الخلقي أجدر بالتقديم والانتخاب ما دام موفياً بالغرض، محققاً الغاية، وفي هذا الإرشاد والتوجيه إيحاء بموقف إيجابي من رواية الشاهد التعليمي إذا كان الشاهد متعدداً، والمحفوظ مسعفاً. أما إذا احصر المتمثل في تقديم الشاهد فلا بأس عليه في الشعر إذا كان خارجاً عن حدود المقبول من القول لتعلقه بفساد المعنى وابتذال اللفظ، لأنه والحالة هذه حالٌ، وليس على الحاكي عيب أو مأثم إذا لم يقصد إلى باطل ينصره أو ظلم يوقعه.

وتعطي الآثار المروية عن أعلام اللغة والتفسير في القرن الثاني الهجري الدليل على التشدد والإباحة في الأخذ بالرفث من القول شاهداً تعليمياً، فأبو عمرو بن العلاء الذي كان معياره في الاحتجاج الفحولة بأبعادها الزمانية والمكانية يغريه شعر أبي نواس بقوة إحكامه، ولكنه يرفض الاحتجاج به لفساد معانيه فيقول: «لولا ما أخذ فيه أبو نواس من الإرفاث لاحتججنا بشعره؛ لأنه كان يحكم القول ولا يخلطه»[2]، فأبو عمرو يمنح الجانب الخلقي الأهمية الكبرى في الاستشهاد بالشعر وانتخاب المثال

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ١/٣٦٦.

(٢) محمود كامل فريد: ديوان أبي نواس ـ المقدمة التاريخية ـ ص٩ طـ التقدم بمصر الأولى وهذه المقولة مروية عن ابن عكرمة عن عامر بن عمران الضبي عن ابن السكيت.

والنموذج في التعليم، فهو يأخذ بالموقف الإيجابي من رواية الشواهد التعليمية، بمعنى أنه يلتزم بالإحسان التزام عزيمة ما دام في المحفوظ والشعر سعة.

غير أن الفراء أبا زكريا يحيى بن زياد (١٤٤ ـ ٢٠٧هـ) لا يرى بأساً من اتخاذ شعر الرفث شاهداً في توضيح معاني ما يشكل من القرآن أو ما يحتاج في فهمه إلى عناء. ففي قراءة الخفض في قول الله تعالى ﴿الحمدِ لله﴾ قال الفراء: «وأما من خفض الدال من «الحمدِ» فإنه قال: هذه كلمة كثرت على ألسن العرب حتى صارت كالاسم الواحد، فثقل عليهم أن يجتمع في اسم واحد من كلامهم ضمّة بعدها كسرة، أو كسرة بعدها ضمّة، وجدوا الكسرتين قد تجتمعان في الاسم الواحد مثل ايد فكسروا الدال ليكون على المثال من أسمائهم، . . . ولا تنكرن أن يجعل الكلمتان كالواحدة إذا كثر بهما الكلام، ومن ذلك قول العرب «بأبَا» إنما هو «بأبي» الياء من المتكلم ليست من الأب، فلما كثر بهما الكلام توهموا أنهما حرف واحد فصيروها ألفاً ليكون على مثال: حبلى وسكرى؛ وما أشبهه من كلام العرب أنشدني أبو مروان:

قال الجواري ما ذهبت مذهبا ... وعِبْنَني ولم أكن مُعَيَّبا
هل أنت إلا ذاهبٌ لِتَلْعَبا ... أرَيْتَ إن أُعطِيْتَ نَهْداً كَعْثَبا[1]
أذاك أم نُعطيك هَيْداً هَيْدبا[2] ... أبْرَدَ في الظَّلماءِ من مَسِّ الصَّبا
فقلت لا بل ذاكما يا بِيَبَا ... أجدرُ ألا تَفْضَحا وتَحْرَبا

هل أنت الا ذاهب لتلعبا ذهب بـ «هل» إلى معنى «ما»[3].

ووقف الفراء عند الادغام في «اثّاقلتم» من قول الله تعالى: ﴿ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض﴾[4] فتناول مذاهب العرب في الوصل بادغام

---

(١) يصف الركب (الفرج) النهد: المرتفع، والكعثب الضخم الممتلىء الناتىء.

(٢) الهيد الهيدب: الذي فيه رخاوة.

(٣) الفراء: معاني القرآن ١/ ٣ـ٤.

(٤) سورة براءة: آية ٣٨.

الحرفين المتقاربين المتناسبين في الكلمة الواحدة، كما في «تثاقلتم» أو بجمع الساكنين من كلمتين كما في قوله تعالى: ﴿حتى إذا ادّاركوا فيها﴾ إذ جمعت بين التاء من تداركوا وبين الألف من إذا، قال الفراء: «وبذلك كان يأخذ أبو عمرو بن العلاء ويرد الوجه الأول وأنشدني الكسائي:

تولي الضجيع إذا ما استافها خَصِرا عذب المذاق إذا ما اتّابع القبل»[1]

وذهب الفراء إلى أن معنى «الخرور» هو القعود في قول الله تعالى: ﴿لم يخروا عليها صمّاً وعميانا﴾[2] قال: «يقال: إذا تلي عليهم القرآن لم يقعدوا على حالهم الأولى كأنهم لم يسمعوه. فذلك الخرور. وسمعت العرب تقول: قعد يشتمني، وأقبل يشتمني. وأنشدني بعض العرب:

لا يُقْنِعُ الجاريةَ الخِضابُ ولا الوشاحان ولا الجلبابُ
من دون أن تَلْتَقي الأركابُ ويقعد الهَنُ له لعابُ

قال الفراء: يقال لموضع المذاكير: ركب. ويقعد كقولك: يصير»[3].

وبفاحش الهجاء استأنس الفراء بنماذج عديدة في قضايا اللغة والنحو، منها قول الفرزدق يهجو جريراً[4]:

كم عمَّة لك يا جريرُ وخالةٍ فدعاء قد حَلَبَتْ عليَّ عشاري

في جواز نصب النكرة ورفعها وجرها بعد كم.

ومنها قول جرير يهجو الأخطل[5]:

---

(١) الفراء: معاني القرآن ١/٤٣٨.

(٢) سورة الفرقان: آية ٧٣.

(٣) الفراء: معاني القرآن ٢/٢٧٤ وانظر أمثلة أخرى لهذا الرفث ٢/١٩٢، ٣/٢٤٨.

(٤) الفراء: معاني القرآن ١/١٦٩.

(٥) المصدر نفسه ٢/٣٠٨.

لقـد ولـدَ الأخـيطلَ أُمُّ سَوْءٍ على قِمَـعِ اسْـتِـهـا صُلُب وشـامُ

في تذكير الفعل لأنه فرق بينه وبين فاعله بالمفعول.

ولا يتجـافى الفـراء عن الإحسـان وقـد أخـذ بالإباحة في رواية هذه الشواهد التعليمية؛ لأنه لم يقصد إلى القبح، ولم يرد إشاعة الفاحشة في عمله، وقد منح عبد القاهر الجرجاني مواقف العلماء في هذا الشأن السداد حيث قوّم عملهم بقوله: «وقد استشهـد العلمـاء لغـريب القـرآن وإعرابه بالأبيات فيها الفحش، وفيها ذكر الفعل القبيح، ثم لم يعبهم ذلك إذا كانوا لم يقصدوا إلى ذلك الفحش، ولم يريدوه، ولم يرووا الشعر من أجله»[1].

وتستوي نماذج الشعر الذي يتضمن كلاماً يكفر قائله وشعر الرفث والهجاء في إباحة الاستدلال به شاهداً على حال، أو بياناً لأمر يقتضي السؤال؛ لأن ناقل الكفر ليس بكافر شريطة أن لا يكون مقصوده بروايته التحريض على المعصية، وهو في ذلك لا يزيد عن كونـه مردداً لألفـاظ الشعـر غير قابـل لما جاء فيه، وقراءة هذه الأشعار وإنشادهـا ينطبق عليها ما ينطبق على تعليمها لأنه تكرار قولها، فيستوي بذلك المعلم والمتعلم إذ كلاهمـا مرتبط بالعملية التعلمية التعليمية، التي من أهـدافهـا رفض المعصية، وعـدم الإغـراء بهـا أو التحـريض عليها. يقول عبد القاهر الجرجاني: «وراوي الشعـر حاك، وليس على الحاكي عيب، ولا عليه تبعة، إذا هو لم يقصد بحكايته أن ينصر باطلاً، أو يسوء مسلماً، وقد حكى الله تعالى كلام الكفار، فانظر إلى الغرض الذي له روي الشعر ومن أجله أريد وله دوّن»[2].

وكان أبو هلال العسكري قد تعلل بشواهد المعاني وأمثلتها فيما رواه من سخيف النمـاذج وشينع ألفاظها فقال: «ولولا القصد لجمع أعيان المعاني والشرط المتقدم لتركت التشنيع الملفوظ من المنظوم والمنثور، على أن العلماء لو تركوا رواية سخيف

---

(١) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز بتصحيح السيد محمد رشيد رضا ص٩

(٢) المصدر نفسه ص ٩.

الشعر لسقطت عنهم فوائد كثيرة، ومحاسن جمة موفورة في مثل شعر الفرزدق وجرير والبعيث والأخطل وغيرهم، ولو لم يصلح ذكر الفروج بتصريح اسمائها لكان تسمية أهل اللغة إياها بذلك خطأ، وهذا محال»[1].

وإذا استطاع المعلم أو المتعلم قارئاً أو منشداً أن يكون له موقف إيجابي من رواية الفاسد من الشواهد فإن ذلك من كمال الإحسان، وذلك بالإنكار والتفنيد، إذ يلزم المستمع للشعر الفاسد الإنكار حسب قدرته عليه، لساناً أو يداً أو قلباً، ويلزم العالم الذي يروي هذا الشعر في كتاب، أو المحاضر في دروسه أن تكون ثمة حاجة لإيراده بدءاً، فإن لم تكن ثمة حاجة لإيراده، فإن أوردها وهو لا يعتقد ما فيها، ولا يستروح له، فإنه آثم[2]، على أنه يحسن به أن يفند ما فيها ويدلل على مواطن الكفر والفساد المتضمن لها.

حقاً أن الله عز وجل حكى كلام الكفار في أخبارهم ومواقفهم وقصصهم، غير أن ذلك كله لم يخل من تعقيب يسفّه آراءهم، أو تعجب يستنكر موقفهم، أو توبيخ يزري بتصورهم، أو ردّ يحسم جدالهم، أو تقريع يدفع أباطيلهم.

ولم تكن حكاية أخبارهم وقصصهم مقصوداً بها السرد المجرد عن الغاية العقدية، أو الأفكار الدعوية، إذ حملت وعظاً، وأنارت سبل الأنبياء والدعاة، يقول الله عز وجل: ﴿بل قالوا مثل ما قال الأولون * قالوا أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون * لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين * قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل أفلا تذكرون * قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون لله قل أفلا تتقون * قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل فأنى تسحرون * بل آتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون * ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب

---

(١) أبو هلال العسكري: ديوان المعاني ج ١/٢١١.

(٢) عداب محمود الحمش: الشعر في الإسلام ص ٥٦-٥٧.

كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عمّا يصفون * عالم الغيب والشهادة فتعالى عمّا يشركون﴾[1].

وذهب الألوسي موضحاً الموقف الإيجابي من نقل الباطل وحكايته فقال: «يجوز حكاية كلام المبطل مقروناً بالجواب لئلا يبقى الشك، وعلى أن المحق يجب عليه استماع شبهة المبطل حتى يمكنه الاشتغال بحلها»[2].

---

(١) سورة المؤمنون: آية ٨١-٩٢.

(٢) الألوسي: روح المعاني ١٦/٢٠٣.